خاتمة

أمل العالم

كان من المناسب أن تنتهي رحلتنا إلى العالم الإسلامي في الكاتدرائية الوطنية بواشنطن دي. سي، المدينة التي انطلقت منها. تعد الكاتدرائية واحدا من أشهر المعالم التاريخية في واشنطن، حيث تربض على قمة أعلى تلة فيها، وتشاهد أبراجها من ضفة نهر البوتوماك في فرجينيا. بنيت الكاتدرائية من الحجارة البيضاء والرمادية على الطراز القوطي، وتضم عمارتها الرائعة التي تملأ النفس بالرهبة والخشوع نوافذ زجاجية ملونة مبهرة وأماكن صلاة مزخرفة. النوافذ تصور مشاهد ومناظر أمريكية، وتعرض إحداها صخرة أحضرت من سطح القمر.

دخلتها في أصيل أحد أيام شباط/ فبراير الباردة، حيث حجبت السحب العالية أشعة الشمس. لكنني شعرت بالدفء فيها. كان أسقف واشنطن يقيم صلاة مسائية تكريما لي بعد أن تم اختياري أستاذ العام 2004 في واشنطن دي. سي، في مناسبة غير مسبوقة تجمع بين الأديان.

قمنا جميعا، أنا الباحث الأكاديمي المسلم، وحاخام يهودي، وأسقف مسيحي، بتلاوة نصوص من كتبنا المقدسة، وألقينا الخطب من على المنبر، وتحدثنا عن صداقتنا وتواصلنا بعضنا مع بعض في هذه الظروف الصعبة والعصيبة. نظرت إلى الحاضرين من فوق المنبر وشعرت بانتصار كرم وسخاء وسماحة الروح الإنسانية وامتلأ فؤادي غبطة وبهجة:

تحظى هذه المناسبة برأيي بدرجة عالية من الرمزية. هنالك الكثيرون في جامعتي يستحقون هذا الشرف غير المسبوق أكثر مني. رمزية المناسبة وحدها تمثل معلما بارزا في الحوار بين الأديان. لنتخيل إعادة للمناسبة: في مسجد في القاهرة أو لاهور أو كوالالمبور، يدعى فيها عالم بارز يهودي أو مسيحي لحضور صلاة الجمعة ثم يفسح المجال له ليلقي الخطبة. إنها إشارة دلالية عظيمة آمل أن يكررها زعماء دينيون مسلمون.

لذلـك أرغب في التأكيـد لصديقي، جون وبروس، أنهما زعيمـان حقيقيان للحوار، والتراحم، والإحسان، والفهم في عالمنا، وأعرف أنني حين كنت منخرطا في هذا الحوار، تلقيت رسائـل سلبية، بل تتضح بالكراهية أحيانا، من أشخاص لا يؤمنون بالحوار. أعلم أيضـا أن كلا منكما تلقى ردودا سلبية مشابهة من قومه. في الحقيقة، رأيت الهجوم على الأسقـف تحت يافطـة: "أول أسقف لليهود والمسلمين في واشنطـن". أصدقائي الأعزاء، هذه ألقاب شرف واعتزاز وأنا متيقن أن شخصيات الكتاب المقدس العظيمة التي تلهمنا منـذ عهد إبراهيم سوف توجهكم لتمييز روابطنا الإنسانية المشتركة في الأوقات الصعبة والمحفوفـة بالخطر. في الحقيقة أريـد أن أسجل أنني رأيت وسمعـت الأسقف والحاخام يقفان وينتقدان بشجاعة انتهاكات حقوق الإنسان وغياب الحريات المدنية التي وجب على المسلمين غالبا تحملها. هذا هو الإيمان الحق والصداقة الحقيقية.

في أمسيـة يوم السبت تلك، تجمع سبعمئة شخـص للمشاركة في هذه اللحظة المعبرة والخاصـة من حوار الأديان. ضـم المشاركون طلابا وسفراء ورؤسـاء حكومات سابقين. وأتـى الضيوف من خـارج واشنطن – من بالم بيتش، ولوس أنجلوس، وبوسطن. صديق زرادشتي، هوجيمي انجنير، الرسام الباكستاني، قدم من كراتشي للمشاركة في المناسبة. ومـن بـين أبرز الحضور سفراء مسلمون، وأئمة – منهم الإمـام ماجد، رئيس أكبر مركز إسلامـي في منطقة واشنطن – ومديرو مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية، والجمعية الإسلامية في أمريكا الشمالية، والأمين العام للمؤتمر الباكستاني الأمريكي. كانوا جميعا مدركين أنهم يشاركون في تجربة استثنائية. العواطف الوجدانية كانت على أشدها وعيون كثيرة اغرورقت بالدمعتى مراسلة "بي بي سي" دمعت عيناها.

الرمز كان قويا ومعبرا. فعلى الرغم من كل شيء، نحن هنا في الكاتدرائية الوطنية، إحـدى أكبر الكنائس في العـالم، التي تربض في قلب عاصمة القـوة العظمى الوحيدة في أوائل القرن الحادي والعشرين، حيث صلى رئيس الولايات المتحدة، وحيث تعقد المناسبات الرسمية مثل القداس على روح الرئيسين الراحلين رونالد ريغان ثم جيرالد فورد[1].

أتـت هذه المناسبة غير المسبوقة للديانـات الإبراهيمية الثلاث – اليهودية والمسيحية والإسـلام – نتيجة للصداقة التـي جمعتني مع شخصيتين روحانيتـين بارزتين: الأسقف

جـون تشـان، بضحكتـه الدافئـة وقلبـه الطيـب وكلماتـه الرقيقـة، وكبـير الحاخامين بروس لوستيـغ، رئيس جماعة المصلـين العبرية، أصغرنـا نحن الثلاثة عمـرا وإن تمتع دومـا بالحكمة والحصافـة والاهتمام بالآخريـن. استقبل الأسقـف والحاخام المدعوين بابتسامـات عريضة والتماعة متألقـة في العيون. وبرأيي، يجسـد كل منهما أفضل ما في دينه، وقلبه نقي كأفكاره.

الأسقـف جـون تشان، يستضيف في الكاتدرائية الوطنية في واشنطن مناسبة غـير مسبوقة (صلاة مسائية) تكريما لأكـبر أحمـد في شباط/فبرايـر 2005. رحب الأسقـف، والحاخام بروس لوستيغ (جماعة المصلـين العبرية في واشنطـن) بأكبر أحمد وعائلته أجمل ترحيب في الحادي عشر من سبتمبر، حين انتشر الغضب والارتياب بالمسلمين على نطاق واسع.

التقيـت أول مـرة الحاخـام عن طريق زوجتـه آمي، في حفـل عشاء كبـير أقيم بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001 بقليل. وحين شعرت أنني تائه لأنني لم أكن أعرف أحدا مـن الحاضرين، قدمتني إلى زوجها، بروس. ولم يمض وقت طويل حتى وجه دعوة إلينا أنا وزوجتي لحضور حفل عشاء ومقابلة الأسقف جون تشان وزوجته اللذين وصلا حديثا. التقينـا تلك الليلة وبقينا حتى ساعـة متأخرة لنكتشف أننا نتقاسم الحماس نفسه للعثور على موضوعات مشتركة في تقاليد وتراث الديانات المختلفة.

نمـت مـن الاهتمام المشترك صداقة متينـة. أطلقنا معا عدة مبـادرات مهمة، منها القمـة الإبراهيميـة الأولى التي استضافهـا بروس وأصبحت معروفـة الآن على الصعيد

الوطنـي باسم "مسيرة الوحدة" التي تعقـد سنويا في الحادي عشر من سبتمبر. المسيرة يقودهـا ثلاثتنا، حيث تبدأ من مركز جماعة المصلـين العبرية، وتتوقف عند الكاتدرائية الوطنية، وتنتهي عند المركز الإسلامي، وينضم إلينا أتباع الأديان كلها.

في تلك المناسبة، صعد الحاخـام لوستيغ إلى المنبر وألقى عظة حماسية استحضرت التعاليم الإبراهيمية بعنوان: "الدكتور أكبر أحمد: ساع إلى الله":

العثـور علـى مثل هذا الشخص النادر أمر صعب. ففي عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمـبر، حيث العـادي مشتبه فيه، والخـوف واللامبالاة مهيمنان، وبـدلا من أن نبحث عـن صداقة الآخرين نتجنبهـم ونتحاشاهم؛ شيدنا أسوارا لحمايـة أنفسنا فزاد خوفنا وعزلتنـا. حين عجزنا عـن البحث عن الآخريـن أو الله.. اختار أحمـد، بوصفه متحدرا مـن إبراهيـم، بناء جسور التفاهم والفهـم عندما اختار الآخرون بنـاء جدران الخوف. ولم يفعـل ذلـك بإنكار وتجاهـل الحقائق الواقعيـة القاسية في أيامنا هـذه، بل عبر لقاء الآخريـن، ورغمـا عنهم، في مقابلات مباشرة: "أنا – أنت". وقـف أمام التوراة المفتوحة علـى منبر كينسنا؛ استقدم رجال وعلماء دين من الجالية الباكستانية المسلمة للمشاركة في طقوسنـا (العشـاء في ذكرى الخروج من مصر)؛ شارك في لجان وبرامج تلفزيونية لا تحصـى. من الكنيسة إلى البيت الأبيض بجانـب الرئيس، لم يفوت فرصة دون أن يعلمنا كـي نعرف أن الإسلام الصحيح هو دين السلام. وفي خضـم أصوات التطرف الآتية من كل حـدب وصوب، نعبر عن شكرنـا وتقديرنا لأننا سمعنا صوتا آخر – صوت أكبر أحمد؛ الهادئ اللطيف، المفعم بالحكمة والصدق. في الحقيقة، امتلك أكبر تلك الشجاعة ليقول لا للكراهيـة والعنـف، وللخوف والانعـزال. إنها شجاعة حقة، لأنـه استمر، حتى في زمن الخطر الشخصي المحدق، في قول لا للظلم وبلى للحوار والإيمان بالله.

ثم وقف الأسقف جون تشان، ليختم المناسبة بعظة يوم الأحد، ويملأ صحن الكنيسة بروحانيته الدافئة ووضوحه الأخلاقي:

نمثل نحـن الثلاثة – أنا وبروس وأكبر – الحالمين بمجتمعنا العالمي.. ونمضي أوقاتنا معا نتقاسم الطعام ونتبـادل الحديث على مائدة مشتركة، وتملأ عائلاتنا قلبي بالبهجة والأمل. الأمل بأن يصبح عالمنا، المقسم من أولئك الذين يزعمون امتلاك الحق الحصري

في المعرفة الصحيحة والمعصومة برب الخليقة، عالما يمكن للكل أن يعيشوا فيه بسلام وتناغم.. نحن نجتمع في هذه الليلة في هذه الكاتدرائية العظيمة، المكان المقدس للرحلة المقدسة؛ يهودي ومسيحي ومسلم، لنذكر بعضنا بعضا وكل واحد منكم بأن كل شيء ممكن بمشيئة الله.. وبإذن الله نؤمن من أعماق قلوبنا بأن وقتا سيأتي على هذه الأرض يتمكن فيه جميع أبناء الله من الاحتفال بذلك السلام الذي يعم العالم.

نحن نعيش في عصر يعاني العالم فيه حالة خطرة من عدم التوازن. ببساطة، لا يمكن الاستمرار كما نحن. أعتقد أن العالم يزداد وعيا بالمصير الإنساني المشترك أكثر من أي وقت مضى. لأننا أخوة في رحلة مشتركة نعبد فيها الله ذاته ونتقاسم بطرق شتى القصص القديمة المقدسة نفسها التي تجمعنا روحيا معا لكنها تعرف تراثنا الديني بوصفه متميزا ومختلفا. قد يبدو هذا الإعلان للكثيرين راديكاليالكنه في رأيي أمل العالم.

الأسقف على حق: هذا هو أمل العالم. حين أنظر إلى البشر قد ألاحظ عرقهم أو جنسهم أو دينهم المختلف، لكنني أعرف أن كل واحد منا مقدر عليه أن يعيش الدورة ذاتها: ولادة، نمو، ثم موت في نهاية المطاف؛ وأننا جميعا نشعر بالألم والسعادة والحزن؛ أعرف أن قلوبنا تبكي حين يتألم طفل أو يعاني شيخ عاجز التبريح والوجع. أعرف مدى عمق ارتباط مصائرنا الآن على هذا الكوكب الذي يزداد عدد سكانه ويرتفع عدد فقرائه. أشعر بالوحدة الكامنة في صميم المأزق الإنساني والحزن العميق لما يطغى علينا من جشع وغضب وجهل.

أعرف أيضا الطيبة والصلاح والحيوية في أفراد كل عرق وأتباع كل دين. وأن هناك أملا للمجتمعات على هذا الكوكب لتصبح مجتمعا عالميا على الرغم من أن الوقت ينفذ؛ لكن عليها أن تعتنق الحب بروح أولئك الذين تكلموا عنهوأحيانا عانوهكتعبير عن الشمولية الإنسانية التي تضم الجميع. وفي سبيل السمو على حدود العرق والقبيلة والدين، والاعتزاز بإنسانيتنا المشتركة، يجب على كل فرد منا أن يتحول إلى رسالة، تنقلها كلمة بسيطة واحدة: هذا هو أمل العالم.